البر والوفاء

البر والوفاء من صفات الرسل والأنبياء ، وقد امتدح الله (عز وجل) أبا الأنبياء سيدنا إبراهيم (عليه السلام) فقال سبحانه :" وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ " (النجم : ٣٧) ، وامتدح سيدنا إسماعيل عليه السلام فقال سبحانه : " وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا " (مريم : ٥٤) ، وقال في شأن سيدنا يحيى (عليه السلام) : "يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا " (مريم : ١٢-١٥) ، وقال سبحانه على لسان سيدنا عيسى عليه السلام: " قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا " (مريم : ٣٠-٣٣) ، وكان سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أوفى الناس بالناس ، وأبر الناس بالناس ، أوفى الناس وأبرهم لأهله ، ولأصحابه ، ولأمته ، وللناس أجمعين .

وقد أمرنا سبحانه بالوفاء بالعهود والعقود والأمانات ، فقال سبحانه: " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ " (المائدة : ١)، وقال سبحانه : " وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ " (البقرة : ٤٠) ، وقال سبحانه : " إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا " (النساء : ٥٨) ، ونهانا سبحانه عن خلف الوعود ، ونكث العهود ، وخيانة الأمانات ، فقال سبحانه: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ " (الأنفال : ٢٧) ، وقال سبحانه :" وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ

أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ" (النحل : ٩١، ٩٢).

ويبين لنا نبينا (صلى الله عليه وسلم) أن خلف الوعد ونكث العهد وخيانة الأمانة من أخص صفات المنافقين ، فقال :" آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ" (متفق عليه) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : " أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا ، إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ" (متفق عليه) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : " لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ" (مسند أحمد) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : " الْخَازِنُ الأَمِينُ الَّذِي يُؤَدِّي مَا أُمِرَ بِهِ طَيِّبَةً نَفْسُهُ أَحَدُ الْمُتَصَدِّقَيْنِ" (صحيح البخاري) .

ولما أُذن له (صلى الله عليه وسلم) بالهجرة من مكة إلى المدينة ترك ابن عمه الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ليرد الأمانات إلى أصحابها ، وكان (صلى الله عليه وسلم) أوفى الناس وأكرمهم لأصحابه وأزواجه والناس أجمعين ، فقد كانت عجوز تأتيه (صلى الله عليه وسلم) في بيت عائشة (رضي الله عنها) فكان (صلى الله عليه وسلم) يهش لها ويكرمها ويقول : "إنها كانت تأتينا على عهد خديجة " (المستدرك للحاكم) .

وقد ضرب لنا القرآن مثلا فيه متعظ كبير ، حيث يقص علينا الحق سبحانه قصة من عاهد الله لئن أتاه من فضله ليصدقن وليكونن من الصالحين ، فلما أنعم الله عليه ومَنّ عليه بالفضل والعطاء الوفير انقلب على وجهه ، فخسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين ، حيث يقول الحق سبحانه مصورًا ذلك في سورة التوبة التي فضحت وكشفت النفاق والمنافقين : "وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٧٦

فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ "(التوبة: ٧٥،٧٧).

وقد علمنا ديننا الحنيف أن نكون أوفياء لكل من يسدي لنا جميلاً أو معروفًا ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : "مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ" (سنن أبي داود) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : "لا يَشْكُرُ الله مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ" (سنن أبي داود).

وقد ضرب لنا النبي (صلى الله عليه وسلم) أعظم المثل في ذلك في وفائه لزوجه خديجة (رضي الله عنها) حيث كان يقول عنها : " آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ ، وَرَزَقَنِي الله عَزَّ وَجَلَّ منها الولد" (مسند أحمد) ، وعن عائشة (رضي الله عنها) أن امرأة جاءت إلى بيت النبي (صلى الله عليه وسلم) فسألها عليه الصلاة والسلام : "من أنت؟" قالت : جَثَّامَةُ الْمُزَنِيَّةُ ، قَالَ : " بَلْ أَنْتِ حَسَّانَةُ الْمُزَنِيَّةُ ، كَيْفَ أَنْتُمْ ؟ كَيْفَ حَالكُمْ ؟ كَيْفَ كُنْتُمْ بَعْدَنَا؟ قَالَتْ : بِخَيْرٍ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله ، قَالَتْ : فَلَمَّا خَرَجَتْ قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله ، تُقْبِلُ عَلَى هَذِهِ الْعَجُوزِ هَذَا الإِقْبَالَ ؟ فَقَالَ : يَا عَائِشَةُ ، إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا زَمَانَ خَدِيجَةَ ، وَإِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الإِيمَانِ " (المستدرك للحاكم) ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يقول: " إِنَّ الله بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ ، فَقُلْتُمْ : كَذَبْتَ ؛ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : صَدَقْتَ ؛ وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ" فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي" مَرَّتَيْنِ. فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا " (صحيح البخاري) .

وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) وفيًّا لكل من أحسن إليه ، ومن ذلك: وفاؤه لرجل مشرك أحسن إليه وهو المطعم بن عدي الذي أجاره وأدخله جواره عند عودته من الطائف إلى مكة ، فلما كلمه بعض الناس في أسرى بدر قال (صلى الله عليه وسلم) : " لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِيهِم ، لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ " (صحيح البخاري) .

وأيضًا وفاؤه حتى لمن أساءوا إليه من بني وطنه من أهل مكة ، فعندما دخلها فاتحًا منتصرًا قال يا أهل مكة :" مَا تَرَوْنَ أَنِّى صَانِعٌ بِكُمْ؟). قَالُوا: خَيْرًا ، أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ ، قَالَ :" اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ " (السنن الكبرى للبيهقي).

وقد سار أصحابه على هذا الوفاء ، ومن ذلك ما كان من سيدنا عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) الذي خرج في سفر ومعه مالك بن دينار ، فلقيه أعرابي ، فهش له ابن عمر وأكرمه وأحسن لقاءه ، وخلع عمامته وأهداه إياها ، ثم أعطاه دابته التي كان يركبها ، فقال له ابن دينار لقد أحسنت وزدت ، وإن هؤلاء الأعراب يرضون باليسير ، فقال ابن عمر (رضي الله عنهما) : إن أبا هذا كان ودًا لعمر ، وإني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول :" إِنَّ أَبَرَّ البِرِّ ، أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلُ وُدِّ أبيه" (صحيح مسلم) .

ومن أهم ألوان البر والوفاء ، البر بالوطن والوفاء له ، على أن الوفاء للوطن يقتضي الإسهام الجاد في كل ما يدعم أمنه واستقراره وتقدمه وازدهاره .

* * *